

## أنع قصص الحب في الأدب الفرنسى

## الأميرة دكليف

PRINCESSE DE CLÈVES

للأستاذ صلاح الدين المنجد

- ١ -

كان الحب في القرن السابع عشر ، قرين البطولة وخدين الشرف ؛ فكان إذا هام فؤاد الفارس بمن أحب ، ولذعه الشوق ودلته الحب ، عمد إلى البطولة يجعلها غمماً لحبه ووسيلة إلى هواه ؛ فإذا أوق العزم الشديد والقلب الحديد ، ونال طيب الأحذية وبراعة الفروسة وشرف النقية ، وكان فحلاً لا يُقرع أنفه ولا يُطعن عليه ، مُتّع بالحب ، وذاق مودة الحبيب والاميرة دكليف تمثل ما ذكرته وتبين ما وصفته . ولعل من الخير ، قبل أن نقصها عليك ، أن نتحدث عن مؤلفها مدام دلافاييت Mme de La Fayette ، لأن في حياتها من الطرافة ، ما في روايتها من الجمال . والحق أنها كانت من نوادر النساء . تلقت في يفاعتها وسبها أرفع ثقافة يمكن أن تتلقى في ذلك الزمان ، فتخرجت على الشاعر المشهور ميناج Ménage فتتفها وأدبها . وسرعان ما ظهرت رهافة ذوقها ، ورسامة عقلها ورشاقة كتابتها ، وتخطت العشرين ولما تزوج فاضطرت أن تبحث عن زوج لها فصادفت يوماً الكونت دلافاييت ، وكان كريم المحدث ، طيب العرق ، ضئيل العقل ، فتزوج بها وحملها إلى مزارعه في الضواحي ، بيتنى معها عيشاً يقطع بالنعيم . ولم يستطع أن يستهويها فلم ترض عنه ، فهجرته وقصدت إلى باريس ، وهناك صادقت هنرييت دانجلترة Henriette d'Angleterre فأحبها ، فكانت تمشى بلاط لويس الرابع عشر وتقطع الأيام والليالي معها ، حتى إذا قضت هذه ، حزن عليها ، وجفت البلاط وأهله ، واعتزلت الناس . وذاع في باريس صيت مدام دلافاييت ، وعرفت بذكائها وفطنتها . ولم تلبث أن أصبحت مهوى الأنفس ، وبغية الشعراء والكتاب ، أشباه « هويه Huet » و « ميناج Ménage » و « لافونتين La Fontaine » ولكنها كانت عذوقاً عن كل ضجة ، أوفاً من الظهور . كانت تحلم بالحب ، ونعجب بالبطولة

وكانت تحب الهدوء والسكينة ، تستلقى على سريرها الأرجواني الموشى ، فيتخلق أصدقاؤها ومطروها حوله تفتنهم بالسحر والذكاء ، ويفتنونها بالثناء والإطراء

وعرفها « الدوق د لا روشفو كولد Duc de la Rochefoucauld » ، وكان مغامراً ، يبيع نساء . وكان الناس جميعاً يهجون بذكره ، وقليل منهم من رآه . فاتصل بها وهي تذرّف على الحسين . ترى أكان صديقها أم عشيقها ؟ ومهما يكن من أمره ، فقد قضى بقية حياته معها . فكان يزورها في قصرها كل يوم ؛ وكان في هذا القصر بركة ينصب فيها الماء ، وتافورة تنفر منها إلى الفضاء ، وخلوة مغطاة بالأعشاب والأزهار . فكانت تقضى الليالي والأماسى معه ، تحت العشب والزهر . وقد أتى ، بمض الأحيين ، مدام د سيفينييه Mme de Sévigné فيجتمعون معاً ، يترنون على حفافى سريرها الأحمر الموشى تارة ويتحدثون في الخلوة الزهرة ، أمام البركة تارة أخرى .

ومن العجيب أنها كانت تفقد حكم عشيقها أو صاحبها أحد النقد . كان لديها نسخة منها . وكان تعلق عليها وتكتب في الهامش « هذا حق ، وهذا جيد » ، فإذا سخرت منه كتبت « هراء ، خلط ، كلام مبتذل ا » . ولقد قرأت يوماً قوله : « إن ما يسميه الرجال صداقة ، ليس سوى تجارة يكون للأثرة مطعم فيها ومرح . . . » . فككتبت بجانبها : « هذا يصح في الصداقة العامة ، لا في الصداقة الحق » . وقرأت مرة قوله : « مهما ندر الحب ، فإنه أندر من الصداقة الصحيحة » فقالت : « أعتقد أنهما متساويان في الندرة ، لأن في الحق حباً ، ولأن في الحب الصحيح صداقة » . وكتب « إن الذي يجعل كثرة النساء لا يتأرن بالصداقة ، هو أن الصداقة تصبح لا طم لها عندما يذفن طم الحب » . فأجابته : « لا ، بل لأن في الحب من كل شيء : فيه من العقل ، ومن القلب ، ومن الجسم » لقد تصادقا ، وأر كل منهما في الآخر . لقد قالت : « منحنى الفكر ، ولكنى هذبت قلبه وأصلحته ا »

ومن الطريف أن تمثل هذا الدوق الحكيم ، ذا الوجه الجهم ، والمينين الذرافنين ، وبجانبه تلك المرأة اللطيفة ، بؤلفان الروايات ، ويتجادبان أطراف الأحاديث . يذكران أيام لحوهما ، فيقص عليها مغامراته يوم كان ريان الشباب ، ومحدثه عن سحرها . يوم كانت في رونق الصبي

وُيَقْتَن قلبه ، ثم يسي إليها فيتراقصان . وينظر إليها نظرات  
كاهن شباك وإغراء ؛ فتهتاج وتضطرب ، ثم تسارقه النظرات ،  
فيخفق قلبها وتحممر وجنتاها ، فتفر منه وقد علمت أنه الحب  
وشغل الفارس خاطرها ، فسهرت الليل ، « وليل الحب  
بلا آخر » . وذرفت الدمع « ودمع العاشق لا ينفد » . إنه  
فارس فتان ، كيف تصل إليه ، وكيف يضمها بين ذراعيه ؟

وكتمت الأميرة حبها ، وسمت للقيام . ولقد دعيت ليلة إلى  
حفلة رقص أخرى فاعتذرت عن الذهاب ، لأن فارسها لن يذهب  
إليها . واندفعت في الحب ، ولكنها أجملت ذات يوم ، وقد  
بدا لها سوء ما صنعت . أتخون زوجها ؟ إنه زوجها مهما كان  
من أمره ، ولا بد من الوفاء . وأفرغتها وخزات الضمير ولذعات  
الوجدان ، وخافت النار ، ولكن قلبها يلج في شباب الحب فضل  
وتاه . كيف ترضى قلبها الجامح ، وكيف تقي زوجها الطاهر ؟  
ولا تسفل عن الأرق والسهاد ، والأسى والبكاء ، والحنين والأين ،  
والحسرات والآهات . لقد أحبته حباً صرفاً خالصاً . أنتجمع بين  
حين ، وكيف تغالب الوله وتدفع الشوق ، وتفر من الحبيب ؟  
وقررت بعد عذاب ونصب ، أن تحدث زوجها بحبها .

وتسأله إن كان يرى في ذلك حرجاً

وتخلو الأميرة زوجها . وإنه لمشهد من أروع مشاهد  
الحب . مشهد فيه من بطولة كورنيل ورقة راسين . إنها مفتونة  
بقارسها ، والألم يفتقرسها ، وإنه يحب لها مطمئن إليها . هي  
تريد أن تخبره لئلا يمس شرفه ، وهو يجهد كل الجهد  
لينجو من الوسوس ، ويعلم أنها لن تخونه

لقد ظنت أن صراحتها تدفعه إلى الإعجاب بها وإكبارها  
ولكن هذه الصراحة أنضجت في صدره الحقد والحسد والغيرة  
فما تكاد يتحدث بطرف خاشع ، وقلب خافق ، وعين دموع ،  
حتى يشده ويبهت ، ثم يصمت ولا يشكو ، وبأسمى بعد أيام  
فيموت

وها هي ذى الآن وحدها ، قد خلا من كانت تخشى أن  
يُعرَّ شرفه . فلتسرع إلى فارسها الجميل ، لتنعم بين ذراعيه ؛  
ولسكن الأمر ليس كما ظنت . لقد سبي هو إليها ، وتقرب منها  
فصدت عنه ، وأراد أن يتزوج بها فطرده . لقد اعتقدت أن

تلك هي قصة حياتها ، وإنها لقصة تنير الأسمى . لقد حلت  
بالحب والبطولة فلم تدفعهما . وأحبت صديقها هانريت ففجعها  
الموت بها ؛ ثم هي تاتي لاروشفوكولد ، وقد تقضى شبابها وذوى  
فصته . شدة ما تمنى لو التقيا في ريعان سباهما . إذن لرواها الشوى  
ولآرته فعل السحر .

وفي عزلتها وبجانب لاروشفوكولد ، كتبت مدام دولا فايت  
روايتها « الأميرة دكليف »

— ٢ —

وقرأ الناس قصة الأميرة ولهجوا بذكرها ، وصارت  
أحدوة الكتاب والشعراء والنساء في المجالس والأنداء والأسمار .  
ولقد كانت خليفة بأن تشغل الناس ، لأن الأهواء التي تتضافر  
فيها على قلب امرأة غض ، فتختيرها بين زوجها وحبيبها ،  
تنير الدهشة والمجب . فهنا زوجها جاف القلب كما تراه ، وهناك  
حبيبها يبدو لسينها غزلاً بطلاً جميلاً . وأخذ الأدباء يسألون  
( بوسي رابوتان Bussy Rabutin ) نقادة ذلك الزمان من  
رأيه فيها . فكانت الرسائل تسرع إليه يسأله أمحبها : « أقرأت  
الأميرة دكليف ؟ كيف رأيتها ؟ هل أعجبتك ؟ »

إن فيها نزاعاً قوياً بين الحب والواجب لا يقوى عليه النساء ،  
ونضالا عنيقاً قد يتخاذل دونه الرجال ، وشرفاً لا يدرد عنه إلا  
من كان ذا عزم ومضاء . وبرغم ذلك ، فإن الأميرة دكليف  
تغلبت على هواها ولم تضعف في نضالها ، وحافظت على شرفها  
ونباتها .

ها نحن أولاء في قصر الملك هنري الثاني ، نجد آنسة صاغها  
وسقلها الترف ، كان اسمها « شارتر » ، وكانت ذات ذكاء وأناقة  
وجمال . يتزوج بها الأمير دكليف ، وكان نبيلاً مهذباً فيحبها .  
ولكنه كان يمجز عن إظهار حبه لها ، ولا يبرع في إغرائها  
وإرضائها ، وكانت جياشة المواظ ملتهبة الإحساس ، تتحرق  
على ذواق الحب ؛ هذا الحب الذي سمعت به ، ولكنها لم تعرفه ،  
ولم تدر كيف يكون ولا أين تجده . وتقام في اللوثر حفلة رقص  
فيها النساء والرجال ، تحضرها الأميرة ، ويحضرها الفارس  
( دُني مور De Nemours ) زين الفرسان ، وحلية الشبان ،  
وأكثر رجال البلاط لباقة وأناقة . ويلمحها فيشخص إليها بصره